سيجفريد لجان جيرودو

بقلم
الدكتور كمال فريد
أستاذ اللغة الفرنسية وآدابها المساعد بجامعة عين شمس

عندما مثلت مسرحية سيجفريد لأول مرة على مسرح الشانزليزيه بباريس فى ٣ مايو سنة ١٩٢٨ ، كان المؤلف المسرحى جان جيرودو قد تجاوز الخامسة والأربعين من عمره . فقد ولد فى بلدة « بيلاك » بمقاطعة فيينا العليا بفرنسا فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٢ . وهو لا ينتحل الأعذار لتبرير عدم ارتياده المدن الكبرى قبل بلوغه سن الرشد . وقبل أن نفصل تاريخ حياته يجب أن نوضح أنه لم يفصح بشىء عن أسرته أو طفولته ، ولا نجد فى مؤلفاته إلا النذر اليسير عن ذلك . وقد توفى دون أن يكتب لنا سيرة حياته . بيد أن أباه « ليجيه جيرودو » كان يعمل موظفاً بمصلحة الضرائب .

وقد تلقى جان دراسته فى ليسيه « شاتورو » ثم فى ليسيه « لاقانال » . وقد أحب الثقافة الألمانية منذ دراسته الثانوية بفضل أستاذه شارل أدلر . ثم تعمق فيها فى مدرسة المعلمين العليا التى قضى فيها عامى ١٩٠٣ و ١٩٠٤ . ونلمس جلياً إلمامه بالروح والثقافة الألمانية والعلاقات بين بلاده وألمانيا فى قصة سيجفريد ومقاطعة ليموزان وفى مسرحية سيجفريد كما سنوضح ذلك فيما بعد . ولما أتم دراسته الجامعية ، تولى التدريس بعض الوقت حيث ازداد علماً وتعلقاً بالثقافة الألمانية . وقد قام ببعض الأسفار ثم عاد إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ وعمل سكرتيراً لمدير جريدة « الماتان » أى « الصباح » الفرنسية حيث أخذ ينشر سلسلة من المقالات الأدبية والقصص الصغيرة ويشرف على صفحة الأدب فى هذه الجريدة الفرنسية الكبيرة . وتعرف فى تلك الأثناء بالناشر الشهير « جراسيه » الذى نشر له سنة ١٩٠٩ أول مجموعة باسم الريفيات . ثم تقدم جان جيرودو إلى مسابقة السلك السياسى سنة ١٩١٠ ونجح فيها ، فظل يعمل بوزارة الخارجية الفرنسية منذ تلك السنة حتى سنة ١٩٤٠ ، ولم يتول أى عمل دبلوماسى فى الخارج . وربما كان هذا الإجحاف من العوامل التى دفعته إلى أن ينعزل بفكره وإحساسه عن واقع الحياة ليخلق بخياله عالماً خاصاً به وإن لم يمنعه ذلك من أداء ضريبة الدم فى سبيل الدفاع عن وطنه ، فقد اشترك فى الحرب العالمية الأولى وجرح فيها مرتين . وقبيل نهايتها فى سنة ١٩١٧ ، بدأ ينشر مذكراته عنها كجندى اشترك فيها وخبر حوادثها . ويتميز أسلوبه فى هذه المذكرات بطابعه الخاص ، وهو إخفاء المعانى الجادة وراء أسلوب ظاهره المرح ، وإبراز المآسى والمواقف المحزنة فى صورة ظاهرها الهزل والفكاهة . وقد أوحت إليه

هذه الحرب بتأليف بعض كتب نذكر منها « أمريكا الصديقة » (١٩١٩) وكتاب « كليو المعبودة » الذى أصدره سنة ١٩٢٠ . وكليو هذه هى ربة المجد فى الأساطير اليونانية القديمة ، وهى ربة يسخر منها جيرودو لأنها تحسب المجد فيما لا مجد فيه ، كمجد الحروب وسفك الدماء . وعاد جيرودو إلى العمل فى وزارة الخارجية الفرنسية حيث تولى الإشراف على إدارة المشروعات الفرنسية فى الخارج ثم إدارة الصحافة فيها . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى السلك السياسى فرصة التعرف بالظروف الدولية وعلى كثير من الشخصيات المختلفة النوازع والميول . فاتخذ من بعضهم مادة لتأليف الروايات والقصص الطويلة التى أخذ يحلل فيها بعض من اختبرهم نذكر منها « مدرسة غير المكترثين » (١٩١١) و « سيمون العاطفى » (١٩١٨) و « سوزان والمحيط الهادى » (١٩٢١) . وتوضح لنا القصـــة الأخيرة منهج جيرودو الشاعرى فى قصصه وخلاصتها أن سوزان فتاة فى مقتبل العمر كانت على ظهر سفينة تعرضت للغرق ، ونجت عندما ألقت بها الأمواج إلى جزيرة مجهولة فى وسط المحيط لم تجد بها إلا أنواعاً شتى من العصافير عاشت بينها فى نعيم ما شاء الله لها أن تظل حتى طرق سمعها يوماً ما صوت طلقات مدفع فارتاعت ، وتذكرت الحرب ، وفزعت لذكراها ، وإذا الأمواج تقذف بجثة أحد ضحايا الحرب على شاطئ جزيرتها . وترى سوزان هذه الجثة فتعصرها الآلام عصراً ، وتتذكر مآسى البشر وتمحى من نفسها بهجة ذاك الفردوس الذى نعمت فيه طويلا .

تلك هى القصة فى مجموعها لكن الكاتب يصور خلالها تصويراً شاعرياً مظاهر الطبيعة وحالات النفس البشرية ، ويمعن فى التصور والخيال حتى تتكامل له تلك القصة الطويلة .

وتلا هذه القصة بقصة « سيجفريد والليموزينى » (١٩٢٢) و « جولييت فى بلاد الرجال » (١٩٢٤) ثم بللا (١٩٢٦) و « اجلنتين » (١٩٢٧) فضلا عن عدد كبير من القصص الصغيرة .

كانت قصص جيرودو خالية تقريباً من الأحداث وتسودها روح الفكاهة المرحة كما كانت شخصياته أشباحاً رشيقة وانعكاسات لنفسه واختباراته وأحلامه واحتجاجاته مما عرض هذه القصص لمناقشات حامية ، حيث نرى بعض النقاد لا يرون فيها إلا مهارة عقلية ولعباً بأسلوب ميتافيزيقى يعبر عن إرادة الكاتب فى خلق عالم خاص به لا يخضع إلا للفن والهوى الذاتى .

وفى سنة ١٩٢٧ نشر جيرودو بضعة صفحات من قصة « سيجفريد والليموزينى » فى صورة حوار . وتتلخص هذه القصة فى أنه فى سنة ١٩٢٢ ، اطلع صحفى فرنسى فى مجلة ألمانية على مقالات بتوقيع « س . ف . ك » فوجدها عظيمة الشبه بمقالات كتبها قبل سنة ١٩١٤ أحد أصدقائه الباريسيين المدعو « جاك فورستييه » الذى اختفى فى بداية الحرب . ولذا عزم أن يحل هذا اللغز مستعيناً بأحد أصدقائه الألمان المدعو « فون زلتين » الذى التقى به فى باريس ودعاه لزيارة منطقة « البافير » بألمانيا ، وهناك ثبت له أن فون كليست صاحب المقالات التى بتوقيع « س . ف . ك » والذى يراجع الآن الدستور ليس سوى جاك فورستييه ، وعرف أنه وجد فى بداية الحرب فى ساحة القتال عارياً مشرفاً على الموت فاقداً ذاكرته . نجح هذا الصحفى فى أن يلتحق بخدمة سيجفريد كمدرس للغة الفرنسية . وبعد عدة ملابسات ، استطاع أن ينتزع سيجفريد من ألمانيا ويعيد إليه شخصيته ووطنه الحقيقيين .

لاقت هذه القصة نجاحاً طفيفاً . وقد استخلص منها جيرودو مسرحيته الشهيرة « سيجفريد » التى أغراه المخرج والممثل الفرنسى الكبير « جوفيه » بكتابتها للمسرح ثم قدمها جوفيه للجمهور الفرنسى على مسرح الشانزليزيه سنة ١٩٢٨ ، فشجع نجاحها العظيم جيرودو على الاستمرار فى كتابة المسرحيات بعد أن كان إنتاجه

الأدبي قاصراً على الفن القصصي . ولقد نقى جيرودو مسرحيته من استطرادات وتفصيلات القصة كما غير وبدل وأضاف فى الشخصيات الأساسية . إذ بينما نجد فى القصة أن الشخص الذى يستدعى إلى ألمانيا لمحاولة إيقاظ ذاكرة سيجفريد هو أحد أصدقائه نجد فى المسرحية أن من يقوم بهذا الدور هو عشيقة جاك فورستييه والتى تعتبر أقدر من غيرها فى تحريك ذكرياته وبعث ذاكرته بفضل فتات الحياة الأليفة التى عاشاها معاً قبل اختفاء فورستييه فى الحرب . وتشجيعاً لها على القيام بمهمتها ، وقع الاختيار على المدعو « روبينو » ليصطحبها فى رحلتها إلى ألمانيا . . .

تتكون مسرحية سيجفريد من أربعة فصول . وأن سيجفريد له تاريخ طويل فى الأساطير والآداب الألمانية وهو يجمع بين الشجاعة والحكمة ، وإن يكن الأدباء والفنانون الألمانيون قد غلبوا أحد الجانبين على الآخر عبر القرون طبقاً لتغير الروح العامة للشعب الألمانى . وقد أضفى عليه الموسيقى الألمانى « فاجنر » جلالا وعظمة فى الأوبرا التى تحمل اسمه والتى جعلت من سيجفريد رمزاً للبطولة الجرمانية الخالدة . وأشاعت هذه الأوبرا اسم سيجفريد فى العالم كله ولذا لم يكن غريباً أن يطلقه جيرودو على بطل مسرحيته وإن كان ليس له علاقة بالبطل الأسطورى الفجنرى .

فى الفصل الأول ، يمثل المنظر مكتب انتظار فخما حديثاً مطلا على مدينة « جوتا »[1] المغطاة بالثلوج التى تختفى أجراسها وقبابها فى سماء ملبدة بالغيوم وإلى يمين الخليج يشاهد سلماً حلزونياً من الرخام الأبيض تخفيه الجدران .

تدور الحوادث فى مدينة جوتا بعد مضى ثلاث سنوات على هزيمة ألمانيا فى الحرب العظمى الأولى . ويتمتع مستشار ألمانيا الجديد « سيجفريد » بشعبية عظيمة ويبدو فى صورة البطل الوطنى إذ أنه سيمنح البلاد دستوراً جديداً يعيد إليها عظمتها . ولكن بالرغم من هذا النجاح الذى أحرزه فإنه يعانى كثيراً من المرارة لإصابته فى الحرب العالمية الأولى باصابة أفقدته الذاكرة وأنسته نسبه وماضيه واسمه الحقيقى . ولذا أخذ الناس يفدون « من أركان ألمانيا الأربع لكى يتعرفوا فيه على أحد أبنائهم الذى فقد فى الحرب . ولا أحد يشبهه » ؛ وكان يبدو أمام مرآته وكأنه « يتساءل عما يجب ارتداؤه ليكون أكثر شبهاً ومطابقة لملامح صباه » ليسهل التعرف عليه . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل . وفى هذه الآونة كان خصمه السياسى المدعو « زلتين » يقوم من جهته بالتحرى عن الحقيقة . وترجع هذه الخصومة إلى أن زلتين كان يعتقد أن سيجفريد يقود ألمانيا فى طريق مخالف لميولها واستعدادها الحقيقى . ونستشف ذلك من الحوار الذى دار بينه وبين ابنة خالته ايفا التى احتضنت سيجفريد وعملت على وصوله إلى أوج المجد :

زلتين : ألمانيا سيجفريد ! إنى أراها نموذجاً للنظام الإجتماعى بإلغاء الممالك الثلاثين الصغيرة والإقطاعيات والمدن الحرة التى كانت تصدر منها نغمات متضاربة فى أرض الثقافة والحرية ؛ ذلك النظام الذى يقسمها إلى أقاليم متساوية يكون همها الوحيد الميزانيات والتأمينات والرواتب . وبإيجاز يجعل منها أمة نظرية على غراره ولكن دون ذاكرة أو ماض . هذا الإبن المزعوم الذى ينتمى بالوراثة إلى محاسب وفقيه قانون وصانع ساعات . إن إلزام ألمانيا بدستور تلميذك كالزام تنين سيجفريد الحقيقى بابتلاع ساعة تنبيه لتعريفه بالوقت .

ايفا : بفضل سيجفريد ، ستصبح ألمانيا قوية .

زلتين : ليست ألمانيا فى حاجة إلى أن تصبح قوية بل يجب أن تظل ألمانيا كما كانت من قبل أى قوية فى غير الحسى ، عملاقة فى غير المرئى ؛ ليست تقوية ألمانيا مشروعاً اجتماعياً وإنسانياً وإنما يتطلب براعة شاعرية خارقة . ففى كل

---

(١) مدينة ألمانية يسكنها حوالى ٤٦٠٠ نسمة وتقع فى مقاطعة رينانيا .

مرة أراد الألمانى أن يجعل منها بناء حياً ، هوى بناؤه بعد بضع سنوات . . مع أنه فى كل مرة آمن فيها بموهبة بلده فى تحويل كل فكرة كبيرة أو بطولة خارقة إلى رمز أو أسطورة شيد عملا خالداً . . .

ألم تبحثى عن أب لهذا الألمانى الذى لا أصل له ؟ . . ومن يدرينى أليس من الجائز أنه يلعب هو نفسه لعبة ؟

ايفا : أنك لمجنون !

زلتين : إن شعبية سيجفريد ترجع إلى غموضه . إن هذا الذى تنظر إليه ألمانيا كمخلصها ويدعى هو أنه ممثلها ولد لها فجأة منذ ست سنوات فى محطة « فرز » دون ذاكرة أو مستندات أو أمتعة . إن الشعوب كالأطفال تعتقد أن عظماء الرجال يأتون إلى العالم فى قطار . . إن فقدان الذاكرة قد أعطى سيجفريد كل أنواع الماضى ، كل أنواع النبالة وأيضاً — وهو الألزم لرجل الدولة — كل دناءة النسب . فليجد عائلة أو ذاكرة ، وسيصبح عندئذ نداً لنا . وأعتقد لأسباب وجيهة أن هذا الوقت ليس ببعيد » .

أمكن لهذا الخصم السياسى أن يكشف حقيقة سيجفريد فسعى إلى التخلص منه بأن استقدم من فرنسا جنفياف وهى سيدة فنانة فى النحت كانت عشيقة فورستييه واختلفت معه قبل نشوب الحرب بشهر واحد ، وذلك لكى توقظ فى نفسه ذكرياته الفرنسية وتعيد إليه وعيه بماضيه حتى يعود إلى فرنسا بعد أن تنكشف للشعب الألمانى حقيقته . وقد اصطحب جنفياف فى رحلتها إلى ألمانيا صديق زلتين الفقيه الفرنسى فى اللغات واللهجات المدعو « روبينو » . وعلى أثر وصول هذا الأخير ، صارحه زلتين بكل شىء .

زلتين : هل سمعت ما يقال عن سيجفريد ؟

روبينو : عن المستشار سيجفريد ؟ رجلكم العظيم الجديد ؟ بالتأكيد ، فصيته يعرفه كل الناس فى أوربا . فهو الذى يريد أن يمنح ألمانيا دستورها النموذجى ، الذى تنعكس فيه روحها الحقة ، كما يقول أنصاره .

زلتين : وفورستييه ! هل تعرف « فورستييه » ؟

روبينو : الكاتب الفرنسى ؟ صديق جنفياف الذى اختفى ؟ كنت أتحدث معها بشأنه منذ قليل . لا أعرف إلا مؤلفاته الرائعة ! إنه هو الذى زعم أنه قد رد إلى لغتنا وطبائعنا سرها وحساسيتها ، كم كان محقاً ! فى كل مرة أقرأ فيها قصة من رواية الورد[1] أصبر أكثر اقتناعاً . . ادخال الشعر فى فرنسا والعقل فى ألمانيا تكاد تكون المهمة نفسها .

زلتين : ويقوم بها الشخص نفسه .

روبينو : ماذا تقول ؟

زلتين : وجد سيجفريد عارياً ، فاقد الذاكرة والنطق بين مجموعة من الجرحى . أظن أن سيجفريد وفورستييه هما الرجل نفسه . . إذا قرأت مؤلفات سيجفريد ستجد أنها صورة من مؤلفات فورستييه . إن الإلهام والأسلوب وحتى التعابير كلها متشابهة .

روبينو : إن السرقة أساس كل الآداب ما عدا الأولى التى هى على كل حال مجهولة .

زلتين : آه ! هؤلاء الفقهاء الفرنسيون ، يا لهم من فقهاء فى الألمانية ! كنت أتعشم أن أفوز بتأييدك بسرعة أكثر باستخدامى الوسائل التى تتفق وعلمك . وإن لم يكن فى الواقع منهج كبار العلماء هو الذى قادنى إلى الحقيقة .

روبينو : لا أشك فى ذلك . إنها الطريقة الأكثر شيوعاً وليست الأقل ثمرة وهى طريقة الوشاية المجهلة .

زلتين : تماماً ! زائر أجهل اسمه أخبرنى أن سيجفريد كان جاره فى العيادة وأنه ليس ألمانياً . كان

---

(١) قصة خيالية شهيرة من تراث العصور الوسطى .

قد قرأ اسمه على هوية شخصية وجدها فى النقالة مكتوباً عليها : جاك فورستييه » .

وقد صارح روبينو بدوره جنفياف بهذه الحقيقة قائلا « يعتقد زلتين أنه اكتشف أن سيجفريد الذى وجد فيما مضى دون ذاكرة فى ملجأ للجرحى ليس إلا فورستييه » . وهكذا منذ البداية يعرف المشاهدون حقيقة سيجفريد كاملة وإن كان هو ذاته يجهلها .

مهد زلتين لقيام حرب أهلية للقضاء على أعداء ألمانيا الحقيقيين « لأن البلاد كالفواكه بداخلها الديدان التى تفسدها » . وصرح لروبينو بأن لهيبها سيندلع بعد يوم أو يومين وطلب معاونته . وذلك ليتخلص من خصمه السياسى سيجفريد . ثم تمّ تقديم جنفياف لسيجفريد باعتبارها امرأة كندية ستتولى تدريسه اللغة الفرنسية .

ويبدأ الفصل الثانى بمحادثة بين روبينو وجنفياف . وتبدى هذه الأخيرة دهشتها لأنها لم تكن تتصور «معبد النسيان على هذا النحو » وللتغيير الكبير الذى طرأ على حجرة مكتب سيجفريد .

روبينو : هل كان الحال أفضل عند فورستييه ؟

جنفياف : العكس تماماً !

روبينو : ماذا تقصدين بالعكس ؟ ألم يكن يملك فورستييه كرسياً ومكتباً ؟

جنفياف : كانت المقاعد على عكس هذه والمائدة عكس تلك بل والنور عكس هذا النور أيضاً ... يا إلهى أنهم يدعونه يكتب بالمداد الأحمر وهو يمقت ذلك ! والسيجار ، انه يدخنه الآن مع أنه يبغضه . إنى متأكدة أنهم أجبروه لعمل الشيئين اللذين يكرههما كثيراً : التنزه فى الشوارع عارى الرأس ولبس الحمالات . . . تشجع يا روبينو ! سيلزمنا أن نخل بعادات هذه المقبرة .

وهكذا لمست جنفياف أن تغييراً جذرياً طرأ على حياة وعادات سيجفريد وبدأت تقدر أن مهمتها شاقة للغاية . ولذا عندما سألها روبينو عما تنوى عمله . أجابته بأنها لا تدرى وطلبت مشورته وإرشاده لمعرفة أفضل وسيلة لكشف السر لسيجفريد . فأشار عليها بألا تتعجل الأمور لأن أمامها متسعاً من الوقت .

بدأت جنفياف تستعيد الثقة فى نفسها عند رؤيتها صورة زوجة « فرمير دى لفت » لأنه كانت لدى سيجفريد صورة مشابهة لها فى مكتبه بباريس . و « لا شك أنها الشىء الوحيد المشترك بين حياته السالفة وحياته اليوم ، وعلى كل فلم يفقد أىّ شىء ما دامت صورة هذه الهولندية الصغيرة قد وجدت السبيل للحاق به وسط كل هذا الفراغ وهذه القتامة » .

لما أتمت جنفياف حديثها مع روبينو ، إذ بسيجفريد يدخل ببطء من جهة اليسار ويحييها تحية الصباح ثم يسألها عن اسمها . وكان من الطبيعى أن يولى سيجفريد عناية خاصة للإسم والنسب لأن هذا الموضوع يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره .

سيجفريد : كان الأفضل ألا أسألك من أنت ! فبسؤالى هذا بدالى كأنى سألتك عن كل شىء . ويبدو لى أن الإجابة عن كل شىء هى باسم يليه لقب . فإذا استعدت يوماً اسمى ولقبى فلن أجيب على أى سؤال بغير ذكرهما . نعم ، إننى فلان . . نعم إنه الشتاء ، ولكنى فلان . . كم يحلو القول : أن الجليد يتساقط ، ولكنى جنفياف برات .

ويتخذ النقاش بينهما أحياناً طابعاً فلسفياً :

سيجفريد : والحياة ، ما هى ؟

جنفياف : إنها مغامرة مريبة بالنسبة للأحياء وشىء مستحب بالنسبة للموتى .

أخذ سيجفريد يستفسر من جنفياف عن شعور خطيبها فورستييه تجاه ألمانيا ، دون أن يدرى أنه هو وسيجفريد شخص واحد .

جنفياف : كان يقول — على ما أذكر جيداً — أن ألمانيا بلاد عظيمة وشعبها مجد متحمس ، بلاد ذائعة الصيت فى الشعر ، كثيراً

ما تنال فيها المطربة التى لا تحسن الغناء ما لا تناله المطربة التى تحسنه فى بلاد أخرى ولكنها بلاد شرسة وسفاكة للدماء وغليظة القلب مع الضعفاء . .

سيجفريد : هــل كان يحدثك عن حيوية هــذه الإمبراطورية التى يرجع تاريخها إلى أكثر من ألفى سنة وعن عظمة هذا الفن الذى انغمست فيه وعن الحياة الصادقة لهذه الجماهير التى يصفونها فى كل مكان بالرياء وعما تتكشف عنه خبايا نفس وعظمة فن هذا الشعب الذى يتهم بانعدام الذوق ؟

جنفياف : كان يذكره بالخير أحياناً . وكان يهوى كثيراً النغمات الثلاث لأغنية بنات الراين وكان يحب تعلقكم بألمانيا . كان يقول أنه ينقص ألمانيا فى هذا القرن الذى لمعت فيه ، أن تقلل من كبريائها وتنظر إلى الحياة فى بساطة . وبدلا من أن تصدر عن غرائزها ونداء تربتها وماضيها ، نراها تزعم أنها قد صنعت من نفسها نموذجاً جباراً يفوق مقدرة البشر بفضل علم متحذاق وأمراء مصابين بمرض العظمة ، وبدلا من أن تصوغ ــ كعادتهــا ــ صورة جديدة للكرامة الإنسانية صاغت صورة للتعالى والبؤس . هذا ما كان يقوله جاك ، وكان يلوم أيضاً ألمانيا لتوجيهها الاتهامات للجميع .

سيجفريد : هل كان يقول لك أننا نحن الألمان نتهمها بعدة أشياء أخرى وأن الحكم الحقيقى عليها انطلق منها غالباً ؟ هل كشف لك عن الأسباب الحقيقية لهذه الحرب المروعة ؟ هل شرحها لك فى صورتها الحاقدة كما يجب أن يكون الشرح وكأنها انفجار فى قلب يحترق غيظاً ؟

يوجه هنا جيرودو بعض النقد إلى ألمانيا إذ أن موقف ألمانيا من بلاده كان شغله طوال حياته ، بحكم أنه الموضوع الذى خرج به من تجربة حياته الكبرى وهى اشتراكه فى الحرب العالمية الأولى مع جيش وطنه فى محاربة ألمانيا . وسنرى عندما نعرض لباقى المسرحية كيف أنه ينبذ العداوة التقليدية بين بلاده وألمانيا ويدعو إلى روح المحبة والتصافى بين الشعبين .

أخذت جنفياف تتقرب أكثر فأكثر من سيجفريد ثم أخذت ترسم صورة واضحة لخطيبها . فسألها عما إذا كانت تحمل صورته ، فردت بالإيجاب . وقبل أن تبرز الصورة دخلت ايفا وأخبرت سيجفريد بأن المرشال يطلبه ، فبقيت جنفياف بمفردها لحظة مرتكبة وقد كانت مراقبة دون أن تعلم . وعندئذ دخل الجنرال دى فونجلوا وعرفها بأن أحد أجداده كان فرنسياً بروتستانتيا طرد من فرنسا . ثم قال لها « إنى حضرت فقط لأرجوك أن ترحلى دون انتظار عودة سيجفريد . لا داعى للمناقشة . لقد حضرت متأخرة جداً لتأخذيه من ألمانيا ، كما لو كنت تريدين أن تنتزعى منها آل فونجلوا . . . سيبقى أو سيموت » . وينتقل الحديث بينهما بعد ذلك إلى ضرورة حب الوطن رغم كل ما نقاسيه فيه ، وتعاتبه جنفياف قائلة : « يجب ألا تصر على الاعتقاد بأن وطننا كان دائماً رقة ونعومة . . ومع ذلك فانى أشعر نحو القرنين اللذين تجهلهما بحب وعرفان كبير للجميل . فقد كسيا فرنسا » .

وفى المشهد الرابع من الفصل الثانى نرى زلتين وقد قام بثورته واستولى بالقوة على مقر الحكومة والسلطة . ثم نستمع إلى نقاش طريف بين القواد لمحاولة إيجاد تعريف للحرب .

فالدورف : إن ما أريد أن أقوله لك يا ليدنجيه هو أننا ما كنا لنضطر إلى وجودنا هنا لو أنه كان بجيشنا فى أوقات الشدة رئيس أركان حرب آخر يختلف عن ذلك الذى ورثت عنه ملكة التنكيت .

ليدنجيه : ما هى الرذيلة التى نقمت عليه بسببها ؟

فالدورف : رذيلته : إنه كان لديه تعريف خاطئ للحرب . فالحرب ليست مسألة خطط وذخيرة أو جرأة بل هى قبل كل شيء تعريف يحددها كمعادلة كيماوية تعرضها للنجاح أو الفشل .

ليدنجيه : هذا رأيي يا فالدورف وقد صح بالدليل تعريف أستاذى . فهو الذى أنقذ فردريك من الروس ولويزة من نابليون . إنى أذكر هذا التعريف وأنا فى موقف الانتباه : إن الحرب هى الأمة .

فالدورف : هذا هو التعريف الذى خسرنا به الحرب ! وماذا تعنى بالأمة ؟ هل أظن أنك تعنى بها ذلك الخليط من رجال مدفعية « بوتسدام » والمصورين الهزليين بالجرائد الاشتراكية وفرسان الموت ومقاولى دور السينما وأمرائنا ويهودنا ؟

ليدنجيه : بل أعنى هؤلاء الذين يفكرون ويعملون ويشعرون فى الأمة .

فالدورف : تعريفك ؟ انه زج لأركان الحرب العظيم مع الطبقات الدنيا فى البلاد ؛ وما يدعو إليه هو جعل إعلان الحرب حقاً ديمقراطياً وإعطاء كل ألمانى حق الاقتراع عليها . وبهذا التملق ، نجحتم فى جر الأمة كلها إلى إدارة عملية كان ينبغى أن تبقى بين أيدينا ؛ لقد قمتم بحرب سلاحها ستون مليون سهم ولكنكم فقدتم زمامها . وهذا هو خطر الجمعيات العمومية . ومع هذا فأى نجاح لم يكن قد أعده لكم تعريف أستاذى ومدرستى ! لقد كانت نصيحة عملية ودرس همة ومثابرة .. الحرب هى السلم .

فونجلوا : (يتدخل فى الحديث محتداً) أنت مخطئ يا فالدورف . لا شك أنى أقدر كل ما عمله أستاذك من أعمال عظيمة بالرغم من أنه كلف إدارة الامدادات بكل ما لا يستحق الذكر من التوافه . إنى أقدر أيضاً ما يحتويه تعريفك من أمور سليمة ومريحة . وصدقنى أن فكرة تمييز حالة السلم عن حالة الحرب لم يبحثها أبداً أى أركان حرب . ولكنى لا أعرف إلا كلمة واحدة معادلة لكلمة الحرب وهى : « الحرب » ، التى تعتبر وحدها المعادل الحقيقى فى كل تعريف والتى يقوم عليها تعريفنا يا فالدورف . هذا التعريف الذى لم يخدع ناخبينا كما لم يخدع « بسمارك » . وهو للمحارب مبدأ خلقى ونصيحة عملية أيضاً فى كل وقت وظرف وأعنى به أن الحرب هى الحرب !

فالدورف : خطأ ! خطأ ! إنه تكرار . كما لو كنت تقول أن الجنرال دى فونجلوا هو الجنرال دى فونجلوا .

فونجلوا : بالضبط ! وفى تعريفك هذا لى ، لا يوجد تكرار وأنت نفسك تعرف ذلك بل إنك تسمى الشيء بغير حقيقته كما لو اعتبرت القائد النبيه مغفلاً ما دام ليس من أركان الحرب الحقيقية .

موك : (عند دخوله) المستشار سيجفريد ينتظر سعادتكم فى مدخل الطابق الأرضى .

وفى المشهد الخامس نلمس ازدياد تعلق سيجفريد بجنفياف « إنى أرى الآن فيك ما لم أكن قد رأيته من قبل ، ما لم أره فى أى شخص ، هذه الشفاه الحزينة التى تزيل الحزن بالابتسام ، هذه الجبهة المنكسة لتتقى الضوء وكأنها جبهة كبش يناطح كبشاً آخر . كل هذا أراه من جديد ! »

وفى الفصل الثالث نشاهد منظر الفصل الأول مع ادخال بعض التغييرات فى ترتيب الأثاث وتعليق خرائط

على الجدران . . الخ . تدل على أن القاعة قد أستخدمت مركزاً لأركان حرب أثناء الثورة . فى هذا الفصل ، تم القبض على زلتين فطلب من الشرطى المكلف بحراسته أن يقتاده إلى سيجفريد لأن لديه اعترافات يريد أن يقولها له ، ثم صدر حكم باعدام زلتين ولكن مجلس الشيوخ خففه واكتفى بنفيه وترحيله خارج البلاد . فأرادت ايفا أن تحول دون مقابلة زلتين لسيجفريد ولكن هذا الأخير لاحظ ارتباكها وأدرك أنها تكذب عليه ولذا تمسك بمقابلته .

سيجفريد : هل اكتشفت لقب عائلتى ؟

زلتين : لقد اكتشفت أن من يحكم عقله ويتحدث بذكائه ويتدبر بحكمة ليس ألمانياً . . وعلى ايفا أن تواصل هذا المشهد .

ايفا : إنى أحتقرك يا زلتين .

زلتين : إنه أول شعور تثيره دائماً الحقيقة يا ايفا . ستكونين أقوى منى إذا لم تكونى موضع الاحتقار بعد قليل .

ايفا : إنى لا أعرف شيئاً عما يتحدث عنه ، يا سيجفريد !

زلتين : ايفا تعرف كل شىء يا سيجفريد . عما يتعلق بوصولك إلى عيادتها واللهجة الخاصة لأنينك واللوحة التى كنت تحملها على ذراعك والخاصة بجيش أجنبى ، يمكنها أن تشرح لك كل التفاصيل .

وبعد أن اعترف له زلتين بأنه ليس ألمانياً ، دار نقاش وحوار بينه وبين ايفا لتقر له بالحقيقة . وفعلا أقرت بأنه عندما كان لا يعرف أية لغة ولا يقوم إلا بما نراه من حركات حيوان جريح ربما لم يكن ألمانياً . وكان من الطبيعى أن يلتقى بعد ذلك بجنفياف ليتوصل إلى الحقيقة كاملة غير منقوصة ، وبدأ صراع عنيف فى داخله لأن ألمانيا كانت بالنسبة له بمثابة عائلته ومنزله وذاكرته . كان تاريخها هو شبابه الوحيد وأمجادها وهزائمها وأبطالها هم كل ذكرياته . كل هذا كان يهبه ماضياً براقاً وأما الآن وقد أدرك أنه ليس ألمانياً فماذا سيحدث ؟

سيجفريد : فكرى يا جنفياف فيما لا بد أن يشعر به صبى فى السابعة من عمره[1] عندما يتنكر له عظماء الرجال والمدن والأنهار ويديرون له ظهورهم فجأة . لم أعد ألمانياً . كم هو بسيط . يكفى تغيير كل شىء . لم تعد أيام انتصاراتى هى « سودون » و« صادوا »[2] لم يعد يوجد فى علم بلادى خطوط أفقية . لا شك أن الشرق والغرب سيتبدلان حولى ومن كنت أعتقد أنهم مثال الأمانة العظمى والشرف ربما يصبحون بالنسبة لى مثال الخيانة والفظاظة . . . يكفى أن أفكر فى أحد هؤلاء العظماء الذين أعززتهم كثيراً ليطير عنى بضربة جناح .

جنفياف : إذا كانوا حقاً عظماء ، ستراهم من وطنك الجديد .

وأخيراً اعترفت له جنفياف بالحقيقة كاملة « أنت خطيبى جاك فورستييه . أنت فرنسى » .

ويعتبر المشهد السابع من الفصل الثالث من أهم المشاهد حيث يتجلى الخلاف والتعارض بين فرنسا وألمانيا فى اختلاف اللهجة والأسلوب والحركات بين جنفياف وايفا فى الحوار الذى دار بينهما وبين سيجفريد

ايفا : إذا كان جعلك مواطناً لى يعد جريمة فعفواً يا سيجفريد (حركة مبهمة من سيجفريد) وإذا كان التقاطى لصبى مهمل يرتعد على باب ألمانيا وكساؤه بلطفها وتغذيته بقوتها يعد جريمة فعفواً .

سيجفريد : حسناً . . . دعينى .

ايفا : جميع القوانين كانت تهبك لنا ياسيجفريد : التبنى ، الصداقة ، الحنان . . . سهرت

(١) أمضى سيجفريد سبع سنوات فى ألمانيا .
(٢) شاهدت هاتان المدينتان انتصارات ألمانية رائعة .

عليك أسبوعين صباحاً ومساء قبل أن تعود إلى وعيك . . . لم تأت من بلد آخر بل جئت من العدم . . .

سيجفريد : هذا البلد له سحره .

ايفا : لو كنت أعرف أن القدر سيعيدك إلى وطنك لما جعلتك مواطناً لى . . . إنى عرفت الحقيقة أمس فقط ، وكذبت عليك اليوم فقط ، لقد أخطأت . كان ينبغى على أن أبوح لك بكل شيء لأن هذا الاعتراف لا يغير شيئاً .

سيجفريد : حسناً يا ايفا ، وداعاً .

ايفا : لماذا وداعاً ؟ أظن أنك ستبقى معنا ؟

سيجفريد : معكم ؟

ايفا : لن تفارقنا ؟ لن تتركنا ؟

سيجفريد : من أنتم ؟

ايفا : نحن جميعاً ، فالدورف وليدنجيه وآلاف الشبان الذين صحبوك منذ قليل حتى هنا ، جميع الذين يؤمنون بك : ألمانيا !

سيجفريد : دعينى يا ايفا .

ايفا : لم أعتد أن أتركك عندما يصيبك جرح .

سيجفريد : إلى أين تريدين أن تصلى ؟

ايفا : إلى قلبك الحقيقى ، إلى ضميرك . أنصت إلى لقد سبقتك بيوم لأعرف نفسى فى هذا الضباب . سترى غداً كيف أن كل شيء سيصير واضحاً فى نفسك . إن واجبك هنا . منذ سبع سنوات ، لم يكن هناك دليل أو إشارة تنم عن ماضيك . لا يوجد فيك إلا كل جديد ، ليست هناك نزعة تحاول أن تعيدك إلى الماضى الذى فقدته . إن جميع الروابط قد زالت . . . ما قولك يا آنسة ؟

جنفياف : أنا سأصمت . .

ايفا : لا يبدو عليك ذلك . إن سكوتك يعلو على أصواتنا .

جنفياف : لكل منا أسلوبه .

ايفا : ألتمس أن تتنازلى وتنظرى نحوى فكلتانا تكافح . كفى عينيك تحديق أمامك دون أن تبصرى شيئاً .

جنفياف : لكل حركاته .

ايفا : بأى حق أنت هنا ؟ من الذى استدعاك إلى هذا البلد الذى ليس لك ما تعملينه فيه ؟

جنفياف : ألمـــانى .

ايفا : زلتين ؟

جنفياف : زلتين .

ايفا : زلتين خائن لألمانيا . أنت ترى ياسيجفريد أن هذه المؤامرة لم يكن هدفها إصلاح خطأ الماضى ولكن انتزاعك من البلد الذى أنت معقد أمله والذى منحك ما لم يمنحه دائماً للملوك : السلطة والتبجيل .

سيجفريد : ما ترفضه نفسى الآن . . . أرجوكما أن تتركانى وحيداً . . .

ايفا : كلا يا سيجفريد .

جنفياف : لماذا يا جاك .

ايفا : اختر أحد الاسمين .

جنفياف : إن الاختيار لسوء الحظ ليس بين اسمين . ولكن بين حياة عظيمة ليست ملكه وبين العدم الذى يتفق مع حالته . سيتردد كل إنسان فى ذلك . . .

ايفا : عليه أن يختار بين وطن هو عقله ، تحمل أعلامه الحروف الأولى لاسمه وهى متشابكة ، ويمكنه أن يساهم فى انقاذه من فزع مهلك وبين بلاد لم يعد اسمه منقوشاً فيها إلا على الرخام ، حيث يكون عدم الفائدة ، حيث لن تفيد عودته إلا صحف

الصباح حيث لا ينتظره أحد من الفلاح إلى الرئيس . . . أليس هذا صحيحاً ؟

جنفياف : إنه صحيح .

ايفا : لم تعد له عائلة ، أليس كذلك؟

جنفياف : كلا .

ايفا : لم يكن له أبناء ولا أقارب ؟

جنفياف : كلا .

ايفا : كان فقيراً ؟ لم يكن يملك منزلا فى الريف أو شبراً من التربة الفرنسية ؟

جنفياف : كلا .

ايفا : أين واجبك يا سيجفريد ؟ ستون مليون شخص هنا ينتظرونك . هناك ، لا ينتظرك أحد . أليس كذلك ؟

جنفياف : لا أحد .

ايفا : تعال يا سيجفريد .

جنفياف : نعم . ومع ذلك فهناك واحد ينتظره ... واحد ؟ فى هذا مبالغة . . هناك كائن حى ينتظره ، له قدر ضئيل من الضمير وآخر من التفكير .

ايفا : من .

جنفياف : كلب .

ايفا : كلب ؟

جنفياف : كلبه . ينتظرك كلبك يا جاك .

ايفا : هذا شيء يستوجب الضحك . . .

جنفياف : إنه يستوجب الضحك أكثر مما تظنين : إنه كلب شعره طويل . إنه أبيض اللون ومثل جميع كلاب فرنسا البيضاء اسمه « بلاك » ، إن بلاك ينتظرك ، يا جاك .

ايفا : كفى عن المزاح .

جنفياف : نعم إنى أعرف أنك تريدين أن أتكلم عن فرنسا ولكنى لا أرى شيئاً آخر أقوله لجاك . عظمة ألمانيا ضد عظمة فرنسا ، إنه فى الواقع موضوع شيق للدراما . ولكن هذا يا جاك هو دراما الغد .

ايفا : هل نستطيع معرفة ما هى دراما اليوم ؟

جنفياف : الدراما يا جاك هى اليوم بين الجمع الذى يهلل لك وهذا الكلب وهذه الحياة الصماء التى تأمل فيها . لم أقل الحقيقة عندما قلت أنه هو وحده ينتظرك . . . إن مصباحك ينتظرك والحروف الأولى لاسمك المطبوعة على ورق خطاباتك تنتظرك وأشجار شارعك وشرابك وملبسك الذى لم يعد يطابق ذوق العصر ومع ذلك احتفظت به دون أن أدرى لذلك سبباً ، وفى هذه الخرق البالية ستجد راحتك . فهذا الرداء غير المرئى الذى تنسجه على الكائن الحى طريقة الأكل والمشى والتحية ، وهـــذا التوافق الرائع فى الطعوم والألوان والروائح الذى نحصل عليه بحواسنا ونحن صغار ، كل هذا هو الوطن الصحيح وفيه ما تفتقر إليه . . ولقد أدركت هذا منذ وصولى إلى هنا . إنى أفهم سبب اضطرابك المستمر . هناك فرق بين العصافير والزنابير والزهور فى هذا البلد وبينها فى بلدك ، فرق فى الطبيعة غير ملموس ولكنك لا تقبله . إنك عندما تلتقى ثانية بحيواناتك وحشراتك ونباتاتك وبالروائح التى تختلف فيها الزهرة عنها فى البلد الآخر ، سيمكنك أن تعيش سعيداً حتى مع ذاكرتك الخالية لأنها هى التى ستشغلها . والخلاصة أن كل شيء ينتظرك فى فرنسا ماعدا الناس . أما هنا فلا يعرفك ولا يهتم بك أحد غير الناس .

ايفا : تستطيع أن تلبس ثانية ملابسك الفرنسية يا سيجفريد . ولن تتخلى عندئذ عن هذه

السنوات السبع التى طوقتك بها ألمانيا إلا على نحو ما تتخلى عنها شجرة . إن هذا الشخص الذى جمده شتاؤنا التليد سبع مرات ، وهذا الذى أدفأه أحدث وأنشط ربيع فى أوروبا سبع مرات ، صدقنى قد أصبح من الآن فصاعداً مكوناً من مادة عديمة الحساسية بالنسبة للمشاعر والأجواء المعتدلة . ولن تعود لك أبداً عاداتك عند جلوسك على واجهات المقاهى . إنها توجد مع أشجار زاننا الجبارة ومع أنهارنا الفياضة ومع صخب المناظر والشهوات التى تغمر النفس . لا يا سيجفريد إنك لا تستطيع أن تغير القلب الواسع الذى وهبناه لك بآلة الضبط هذه ، بهذه الساعة المنبهة التى تدق وتوقظ قبل كل انفعال يمكن أن يثيره فيك قلب فتاة فرنسية . فتخير يا سيجفريد . لا تدع صيحات ذلك الماضى الذى لم تعد تعرفه والذى قد يستلون منه كل أسلحة الملق والدس للقضاء عليك ، تؤثر عليك . ليس الكلب هو الذى وضعته كطعم لك هذه المرأة فى فرنسا ، بل أنت نفسك ، أنت نفسك كشخص غير معروف ، مجهول ، ضائع إلى الأبد . لا تضح بنفسك فى سبيل شبحك .

جنفياف : تخير يا جاك . لقد رأيت كيف كنت على استعداد لأن أخفى كل شىء وأن أنتظر فرصة أقل وقعاً بل أنتظر شهوراً ، ولكن لم يشأ القدر ذلك . أنتظر الحكم .

ايفا : احترس يا سيجفريد ! ينتظر أصدقاؤنا عودتى . سيحضرون . سيحاولون أن يجبروك ، أذعن للصداقة . انظر . انصت إنهم ينصبون أنوار الزينة من أجلك . إنهم يهللون لك . استمع إلى صوت هذا الشعب الذى يناديك . ألا يعادل كل ذلك نباح كلب ؟ . . بين هذا الضوء وذاك الظلام ، بين ألمانيا وبلاك ، أيهما تختار ؟

وينتهى هذا الفصل وسيجفريد فى حيرة من أمره لا يدرى أيهما يختار : ا ألمانيا التى وصل فيها إلى قمة المجد أم فرنسا وطنه الأصلى مهد طفولته وشبابه ومستقر ذكرياته العزيزة ، لأنه « ماذا يستطيع الأعمى أن يختار ؟ » .

وفى الفصل الرابع والأخير نشاهد محطة على الحدود مقسمة إلى قسمين بواسطة لوح للبضائع وباب صغير : محطة ألمانية فخمة ونظيفة كبنك ، محطة فرنسية نموذجية يوجد بها موقد وباب حجز وإعلانات دون إطار : يقف بنا المؤلف طويلا عند محطة السكة الحديدية التى تقع على الحد الفاصل بين ألمانيا وفرنسا ليشعرنا كم هو سخيف وهمى ذلك الخط المثالى الذى يفصل بين البلدين ، ويجعل منهما عدوين لدودين . فكم يثير دهشتنا وسخريتنا هذا الحديث الذى دار بين موظف الجمرك الفرنسى « بيترى » وبين جنفياف :

بيترى : لا تتبخترى هكذا على الخط المثالى ؟

جنفياف : على الخط المثالى ؟

بيترى : تعبير فنى فى الجمارك . إنه يعنى الحدود . . أنت ترين جيداً هذا الخط الأصفر الذى يشق القاعة ويختفى فى المقصف ودورة المياه ، إنه الخط المثالى .

جنفياف : (وهى تبتعد) أهو خطر ؟

بيترى : إنى أرى أنك لا تعملين ذلك عن عمد .

وننقل أيضاً جانباً من الحديث الذى دار بين بيترى وموظف الجمرك الألمانى شومان فى هذا الصدد :

بيترى : كنت أعتقد أنه من المتفق عليه أن كل واحد منا سينفض الغبار ابتداء من الخط المثالى نحو الخارج . . . يمكنك أن تحتفظ بغبارك لأجل بلدك.

شومان : معذرة :

ونقل أخيراً طرفاً من الحديث بين بيترى وسيجفريد

بيترى : ألتستدفىء أو لتدخل فرنسا كنت قد حضرت إلى قاعتى ؟

سيجفريد : لمـــاذا ؟

بيترى : يمكن أن تستدفىء من فوق الحاجز وسيان عندى أن تكون يداك فى فرنسا .

سيجفريد : شكراً .

التقى سيجفريد بالجنرالين الألمانيين فالدورف وفونجلوا على الحدود ودار بينهم الحديث الآتى :

سيجفريد : هل طلب إلىّ أن أبت فى شىء ؟

فالدورف : فى اختيار وطنك .

سيجفريد : لقد اتخذت هذا القرار يوم أن ولدت .

فونجلوا : لقد كان لك مولدان يا سيجفريد .

سيجفريد : إذا تعدد الميلاد فالأول هو الأفضل كما هو الحال فى الموت .

ولما أصر سيجفريد على العودة إلى فرنسا . اقترح فالدورف أن يشهد هو وفونجلوا بأنهما رأياه جريحاً فى الليلة الماضية قريباً من الحى المحترق وواقعاً فى اللهب ، بينما اقترح فونجلوا نوعاً آخر من الموت لا يربط اسمه بالسياسة كثيراً كغرق فى نهر أو بحيرة . ولكن سيجفريد رفض عرضهما وأبدى لهما رغبته فى حمل الاسمين والمصيرين اللذين وهبهما له القدر .

سيجفريد : سأعيش ببساطة . سيعيش سيجفريد وفورستييه جنباً إلى جنب . سأحاول أن أحمل بشرف الاسمين والمصيرين اللذين وهبهما لى القدر . إن الحياة الإنسانية ليست دودة يكفى تقطيعها إلى قسمين لكى يصبح كل قسم كياناً كاملا . انه لمن المبالغ فيه أن تحل الرذائل والفضائل معاً فى نفس بشرية واحدة بينما كلمة « ألمانى » وكلمة « فرنسى » ترفضان ان تختلطا معاً . إنى أرفض أن أحفر أخدوداً داخل نفسى . لن أعود إلى فرنسا كآخر أسير أطلق سراحه من السجون الألمانية ، ولكن كأول منتفع من علم جديد أو قلب جديد . . . وداعاً . يصفر قطار كما : سيجفريد وفورستييه يقولان لكما وداعاً :

فالدورف : وداعاً يا سيجفريد . نتمنى لك حظاً سعيداً

فونجلوا : وداعاً يا سيجفريد . أتمنى لك حظاً سعيداً . فكر فى القناع الذى يضعه جميع الفرنسيين والذى يقيهم من استنشاق غازات أوروبا القاتلة ولكنه كثيراً ما يعوق التنفس ويحجب الرؤية .

سيجفريد : سأكون الفرنسى غير المقنع المنحدر من الألمانى فاقد الذاكرة .

تسعى المسرحية كلها إلى الإيحاء بأنه وإن اختلف الشعبان الفرنسى والألمانى فى الثقافة والحضارة والمزاج ، إلا أن هذا الاختلاف لا ينبغى أن يكونا اختلاف عداوة وتعارض ، بل اختلاف التقاء وتكامل . فنرى جيرودو يتمنى مثلا أنه لو شاع فى فرنسا مزيد من روح الشعر وشاع فى ألمانيا مزيد من ضوءالعقل باعتبار أن الروح الشعرية ربما كانت أقوى وأعمق فى ألمانيا بينما يمتاز الفرنسيون بضوء العقل الكاشف المتزن فيما يرى المؤلف . فالمسرحية تعتبر من هذه الناحية حمامة سلام بين الدولتين فضلا عن أنها تعالج حيرة إنسان حساس ممتاز بين حاضره المجيد فى ألمانيا وماضيه اللاصق بشغاف قلبه فى فرنسا ، وإن انتهت بإعلان جنفياف أنها تحب فى الرجل فورستييه الفرنسى وسيجفريد الألمانى معاً .

والواقع أن جيرودو قد شغلته طوال حياته مشكلة العلاقة بين وطنه فرنسا وألمانيا . وقد اتخذ من سيجفريد رمزاً لهذه العلاقة ، حتى رأيناه يواصل الكتابة عن سيجفريد طوال حياته ، بعد أن تصور قصته لأول مرة

فى سنة ١٩٢٢ . والشىء المحزن فى تاريخ هذا الكاتب الإنسانى العظيم هو أن الأحداث وتطورها قد فجعته فى آماله وفى روحه الإنسانية المسالمة الخيرة ، فإنه لم تكد تمضى أعوام حتى أخذت بوادر العداوة تنبثق من جديد بين ألمانيا وفرنسا ، ولم يكد هتلر يصل إلى الحكم والسيطرة على ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ حتى أخذ يؤجج روح الحرب والعداوة عند الشعب الألمانى مما أصاب جان جيرودو بالفزع والمرارة ، فنراه فى سنة ١٩٣٤ يكتب لمسرحية سيجفريد ملحقاً سماه « نهاية سيجفريد » وعندما أعيد طبع هذه المسرحية فى سنة ١٩٣٨ نراه يغير بالفعل خاتمتها ويجعل سيجفريد يموت برصاصة من أحد الجنرالات الألمان الذين دبروا الثورة ضده وكأنه بذلك قد استأنف حياته الأولى ، حياة جاك فورستييه ومات كفرنسى فى معركة بينه وبين الألمان . ولقد ظل جيرودو حياً حتى شهد الألمان يغزون وطنه من جديد ويحتلونه أيام هتلر فى الحرب العالمية الثانية ، كما شهد الشعب الفرنسى يخوض معركته الخالدة معركة التحرير ،لأنه لم يمت إلا فى ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ .

ولا يزال النقاد مختلفين فى المفاضلة بين الخاتمة الأولى للبطل والخاتمة الثانية ، خاتمة المصالحة والسلام وخاتمة العداوة واستئناف الحرب ، وإن يكن المؤلف نفسه قد ساقه ضميره الوطنى إلى الخاتمة الثانية . ومن جهتنا ، فإننا نعتقد أن الخاتمة الأولى أقوى — لا من الناحية الإنسانية فحسب — بل ومن الناحية الوطنية أيضاً ، حيث فضل سيجفريد أن يعود إلى وطنه الأول مهد شبابه وذكرياته الأليفة كرجل فرنسى عادى ، على أن يواصل الحياة فى وطن آخر حتى ولو وصل فيه إلى ذروة المجد والمحبة الشعبية بل ورياسة الدولة .

نلاحظ أن خاتمة هذه المسرحية تتركنا فى وضع لا يختلف كثيراً عن بدايتها . فإننا منذ البداية نعرف أن سيجفريد هو فورستييه . ويحدثنا زلتين فى هذا الشأن فى المشهد الثالث من الفصل الثالث قائلا « إنها اللحظة التى يسكت فيها عمال المناظر فى المسرح والتى ينخفض فيها صوت الملقن والتى يعرف فيها النظارة كل شىء بطبيعة الحال عن محنة « أوديب » و « عطيل » ، ومع ذلك يرتعدون عند معرفة ما كانوا يعلمونه منذ الأزل »

ولا نستطيع أن نتجاهل الدور الذى يلعبه القدر فى هذه المسرحية . فبعد مرور سبع سنوات على اختفاء جاك فورستييه ، يأخذ القدر صورة زلتين ويحث جنفياف على الذهاب إلى جوتا حيث تتأكد من أن سيجفريد هو جاك : « أحببت جاك فورستييه . ومنذ بداية الحرب ، اختفى . ومنذ سبع سنوات لم تصلنى كلمة منه أو إشارة إلى وفاته . ها هى المرة الأولى التى يتنازل فيها القدر ليهتم بى ويخبرنى » ألم تصبح جنفياف منذ هذه اللحظة آلة فى يد القدر مع أنها تعلم أنه ليس للقدر تأثير عليها ؟ ها هى تقول : « إنى ابنة غير شرعية . لم يكن لى أبداً أهل . . لا تأتى المأساة إلا وأنا على تمام الاستعداد للمساهمة فيها . سأصبر كفيدر ولكن دون ابن زوج ودون زوج ودون تشكك الضمير أى فيدر هازلة . لم يبق بعد شىء كبير للقدر » .

غير أن القدر هو الذى أفسد الأمور بينها وبين فورستييه قبل نشوب الحرب بشهر واحد ، ليجنبها لبس الحداد : « إننا اختلفنا قبل نشوب الحرب بشهر إثر مشاجرة بسيطة جداً ، فافترقنا وبذلك جنبنى القدر مفارقة الحياة ولبس الحداد » وهو الذى — على حد قول سيجفريد — « يلتمس المعذرة عندما يغطى الثورات بطبقة من الجليد» وهو الذى — على حد قول جنفياف — يخطئ عندما يأتمن امرأة على أسراره . وفى النهاية هو الذى دفع جنفياف إلى الكلام وإلى مصارحة سيجفريد بكل شىء رغم أنها كانت على تمام الاستعداد لأن تصبر طويلا قبل الإقدام على هذه الخطوة : « كنت على استعداد لأن أخفى كل شىء وأن أنتظر فرصة أقل وقعاً بل أنتظر شهوراً ، ولكن لم يشأ القدر ذلك » .

لماذا جاء القدر بكل هذا ؟ يمكننا أن نجد الرد على هذا السؤال عند سيجفريد : « كثيراً ما ينوب القدر عن البشر فى حل الألغاز التى تعرض لهم . فيستخرج لنا من جوف البطاطس ماساً نادراً مفقوداً أو يهدينا بعد مائة عام إلى حطام سفن كان العالم كله قد سلم بضياعها »

إن القدر فى هذه المسرحية ليس بالعنيف الحاقد بل هو من أسرة المجمع "Ensemblier" وهو الاسم الذى تطلقه ايزابيل فى مسرحية « انترمتزو » على الإله المدبر الذى يثير النكبات الجليلة اللازمة لتعادل جميع الأشياء ولانسجام العالم .

لا تستسلم كثيراً من شخصيات مسرح جيرودو للقدر بل تقاوم بأن تفكر فى حقيقة المأساة ودواعيها حتى يتبين لها أن من وراء ظاهر هذه المأساة إنسانية واضحة ، لذلك يسبغ عليها جيرودو طرفاً من الملهاة ليجعل العقل يسمو على العاطفة ، وليجعل الفكاهة تخلص الناس من مرارة الجد وقسوته ، فكأنه يعتبر أن المأساة لا توجد فى حياة إنسان إلا إذا اعتبرها هو مأساة . وهو يهدف إلى إدخال السعادة إلى قلوب البشر .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن أبطال المسرحية الأربعة (جنفياف — ايفا — زلتين — سيجفريد) ، فيجب ألا نبحث فيهم عن طباع فردية بالمعنى الضيق كما أنه لا يجوز اعتبارهم رموزاً مجردة . فإنهم يجسمون موقفاً جديداً تجاه العالم حيث كل إنسان يتميز عن غيره من جهة نفسه وجسده كما يتميز كوكب عن باقى الكواكب . فإن كلا منهم يعبر عن طموح عميق للكائن البشرى وعن موقف عميق إزاء القدر . ولا شك أننا نتعلق بشخصية سيجفريد أكثر من باقى الشخصيات . وتعتمد الناحية النفسية فى هذه المسرحية على تطور عواطفه ومشاعره تجاه البطلتين ايفا وجنفياف اللتين ترمزان إلى ألمانيا وفرنسا ، وتجاه مولده وماضيه والنوعين المختلفين من الحياة . هل سيتخذ قراراً حاسما هل سيضحى بمجده ؟

إن شخصيات هذه المسرحية تؤثر فينا وتثير الشفقة والإعجاب . فإن جنفياف ابنة غير شرعية ويتيمة . وهى مثالة فرنسية كانت مخطوبة لجاك فورستييه الكاتب الفرنسى الشهير الذى اختفى أثناء الحرب العظمى الأولى . وهى دمثة لطيفة كما أن حبها لفورستييه رقيق عاطفى وشاعرى . وقد أخذت تستعيد الثقة فى نفسها عند رؤيتها صورة زوجة « فرمير دى لفت » فى مكتب سيجفريد لأنها « الشىء الوحيد المشترك بين حياته السالفة وحياته اليوم » . إنها رقيقة وعاقلة فهى تطمئن سيجفريد عندما يبدو عليه القلق بقولها « تستطيع نصف الكائنات أن تغير دون ألم الاسم والدولة ؛ وهؤلاء هم كل النساء » ولكنها رويداً رويداً تشعر بأنها لا تستطيع كتمان السر فإن حبها لسيجفريد أقوى من أى شىء آخر فتصارحه قائلة « أنت خطيبى جاك فورستييه. أنت فرنسى » . وتعتمد المسرحية على سفرها إلى ألمانيا لتكشف لسيجفريد عن حقيقته ، وقد أكد زلتين ذلك بقوله إن « مصير العلاقات بين فرنسا وألمانيا يمكن أن يتوقف على سفرها » . وتنتهى المسرحية بعودتها مع سيجفريد إلى فرنسا .

كان لهذه الفرنسية منافسة خطيرة تنازعها على سيجفريد وهى ايفا . وكانت ايفا امرأة جميلة وعاقلة ووطنية ولكن مشكوكاً فى اخلاصها . وقد ضحت بشبابها من أجل سيجفريد الذى تشرب بمبادئها . وهى مهتمة به وتدرك خطورة الموضوع الذى ينغصه . وعندما لاحظت أنه على وشك أن يتخلى عنها دافعت بكل شجاعة عن تصرفاتها السابقة إزاءه .

وكانت ايفا تبغض ابن خالتها زلتين لأنه يريد أن يتحقق من شخصية سيجفريد وماضيه . وهو شاب شعره أشقر ، ويتميز بخياله الخصيب والبعد عن الحقائق والعجرفة المتأصلة . وقد كان لديه ضلع ناقص كما تنبئ بذلك مشيته كما كان كعب إحدى ساقيه أغلظ من الآخر . وكان كثير التردد على المقاهى والأروقة

وحمامات السباحة . إنه وطنى متطرف ، وألمانى صميم يبغى أن يبقى على التقاليد الألمانية . وهو يجمع بين الذكاء والنشاط ويعرف كيف يحيك الدسائس ، وقد قام باستدعاء جنفياف لينتزع من سيجفريد مجده . كان يحب الربيع والموسيقى والسرور والسلم ، ولكن الغيرة والحقد يجعلانه ينسى كل شعور إنسانى . فيتحدث عن سيجفريد مع ايفا قائلا : « فليجد عائلة أو ذاكرة ، وسيصبح عندئذ ندأ لنا » . وكان له مخبرون وجواسيس نذكر منهم « موك » ، حاجب سيجفريد .

أما سيجفريد فكان طويلا : كستنائى الشعر ومبتسما وهو يجمع بين شخصيتين : إنه الألمانى ذا السبعة الأعوام والكاتب الفرنسى جاك فورستييه . كان خطيب جنفياف . فقد ذاكرته فى الحرب وعثرت عليه ايفا وقامت بإعادة تثقيفه . وقد تعلم اللغة الألمانية فى ستة شهور وأصبح مستشار ألمانيا . وقد طرأ على حياته تغيير جذرى « إنهم يدعونه يكتب بالمداد الأحمر وهو يمقت ذلك ! ويدخن السيجار مع أنه يبغضه » .

وبالرغم من أنه يعتبر ألمانيا بمثابة عائلته وبيته وذاكرته ، فإنه تتوق نفسه إلى الاستدلال على ذويه ويبدو عليه القلق عندما يقول إن « أكبر عطف أستطيع أن أطمع فيه من الناس هو جهلهم بمصيرى » . وعندما عرف الحقيقة صاح قائلا « ماذا يستطيع الأعمى أن يختار » ثم قرر العودة إلى وطنه ليعيش مع جنفياف .

أما باقى الشخصيات فقد أجاد جيرودو تصويرهم . نذكر منهم روبينو رمز الصداقة ، والقواد ليدنجيه وفون فالدورف وفونجلوا وهم نموذج للعسكريين الألمان .

يشبه الحدث فى هذه المسرحية أحداث مسرحيات راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) . فنجد أزمة واحدة قصيرة حادة . لقد عرف سيجفريد أنه هو الفرنسى جاك فورستييه كما أدرك هذه الحقيقة بضعة شخصيات من صالحها جميعاً كتمان هذه الحقيقة . إن سيجفريد سيد مصيره : فله أن يختار بين ألمانيا والسلطان وامرأة تحبه ، وبين فرنسا وحياة يبدأها من جديد بمعاونة خطيبة قطع صلته بها منذ بضعة سنوات . وبعد قليل من التردد ، وقع اختياره على فرنسا .

وتتجلى روعة البناء والتكوين والفن فى هذه المسرحية . ان سيجفريد يجمع بين المتناقضات . كما تعتمد المسرحية على التناقض الموجود بين فرنسا وألمانيا ، ونلمسه فى اختلاف أسلوب ولهجة وحركات كل من شخصيتى ايفا وجنفياف كما ذكرنا من قبل . ولا يكتفى المؤلف بأن يقوم بمقارنة صعبة بين فرنسا وألمانيا بل يهتم أيضاً بموضوع الأمانة والصدق تجاه الحياة .

وتتميز هذه المسرحية بدراية جيرودو بشئون السلك السياسى والحروب والجمعيات السرية . . الخ . كما تتميز أيضاً بإلمامه العميق بثقافة وحضارة ومزاج كل من شعبى فرنسا وألمانيا . ولا شك أن ذلك يرجع إلى دراسته للثقافة الألمانية وإلى أسفاره . أما عن فكرة « فقدان الذاكرة » فلا بد أن جيرودو قابل أمثال هذه الحالة لأنه اشترك فى الحروب وجرح فيها .

ونجد فى هذه المسرحية قدرة عجيبة على التأثير وإثارة الشفقة . ولكن كل هذا يجب ألا ينسينا أن جيرودو كان يبغى أن يجعلنا نواجه المسائل الكبرى التى تتعلق بمصائرنا : الحب كحب جنفياف لفورستييه وحب ايفا لسيجفريد وحب الوطن ، الغيرة كغيرة زلتين من سيجفريد ، تعريف السلم والحرب كما يبدو ذلك فى المناقشة بين قواد سيجفريد ، الحياة والموت ...

وتشع هذه المسرحية بالتفاؤل لأنها كتبت فى وقت ساد فيه الاعتقاد بإمكان دوام السلم . إن هذا العالم الذى جعله عدم الإدراك البشرى مخيفاً سيتولى إعادة الثقة إلى الإنسان ، تلك الثقة التى سبب فقدانها المحاولات الآثمة للانشقاق والانقسام . فإنه « كثيراً ما ينوب القدر عن البشر فى حل الألغاز التى تعرض لهم » .

تبدو الفلسفة الاجتماعية طوال هذه المسرحية حتى فى المقدمة التى يعلن فيها قدوم الشخصيات العظيمة والأقرباء الذين أتوا من أركان ألمانيا الأربع لكى يتعرفوا فى سيجفريد أحد أبنائهم الذى فقد فى الحرب ؛ وان الحقائق والأفكار والأمثال متناثرة هنا وهناك فى المسرحية . ولنذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر : « هل تزعم أن الشبه كالأمراض التى قد تخطئ أحد الأجيال ؟ » و « لا دخل للقومية فى أساس مودتنا » و « إن البلاد كالفواكه بداخلها الديدان التى تفسدها » و « إن الموتى من عظماء الرجال ينتقلون بين الأفلاك ولكن لا تتغير جنسيتهم » و « إن الحياة مغامرة مريبة بالنسبة للأحياء وشيء مستحب بالنسبة للموتى » .

تعتبر هذه المسرحية من المسرحيات المثالية الصادرة عن تفيقه ذهنى . ويتفق النقاد على رفعة مستواها الثقافى ذلك المستوى الذى تحس بأن مؤلفه يملك من الثقافة الرفيعة ما يعطى أدبه قيمته الفذة ويجعل من قراءته أو مشاهدته متعة رفيعة . وتتسم هذه المسرحية بتهكم وسخرية من نوع خاص ، فإن جيرودو لا يتهكم على الأفراد أو الهيئات بل على القدر وعلى العالم أجمع فى نظامه المزعوم وفوضاه الظاهرة .

أما عن أسلوب هذه المسرحية فهو من أغنى الأساليب الفرنسية وأغزرها ، وأشدها عمقاً وشاعرية ، تمازجها روح ساخرة مرهفة .

وقد قمت بترجمة هذه المسرحية إلى اللغة العربية فى سنة ١٩٦٣ بتكليف من وزارة الثقافة والإرشاد القومى . والنص الذى ترجمته إلى العربية هو النص الأصلى الذى كتبه جيرودو سنة ١٩٢٨ كما ورد فى مجلة « لابيتيت ايلستراسيون » فى عدد أغسطس سنة ١٩٢٨ . وقد اخترنا هذا النص لأن خاتمة مسرحية سنة ١٩٢٨ أكثر جمالا وفتنة وإنسانية من خاتمة مسرحية سنة ١٩٣٨ . وقد تولى المرحوم الدكتور محمد مندور مراجعة هذه الترجمة ؛

فى سنة ١٩٢٩ ، قدمت لجيرودو كوميديا « أنفتريون رقم ٣٨ » ! . ونرى فى هذه المسرحية أن جوبيتير يضيق بنفسه ويقلل من قدرها إذ أنه لا يجد فرقاً بينه وبين الأمور المتوفرة فى العالم والتى يعرفها الناس كل المعرفة ، فهو يقول : « أستطيع أن أسبب النسيان تماماً كما يفعل الأفيون ، وأن أسبب الصمم تماماً كما تفعل حشيشة الهر . فللآلهة المتكاملة المتحالفة فى السماء نفس السلطان تقريباً الذى تتمتع به الآلهة المبعثرة المشتتة فى الطبيعة » . وهذا السلطان ضئيل محدود : « تخلوا عن أوهامكم فلسنا إلا آلهة » . لماذا يجعل جيرودو « سيد الأوليمب » يفوه بمثل هذا الكلام ؟ إن قيمة الآلهة فى نظر جيرودو أسطورية ، وهو يطرب حين يراها موضع استخفاف وسخرية ، والناس ينظرون إليها على أنها « قدر تقليدى » وينعتونها باللاوعى وبعدم المسئولية ، ويتهمونها بالمتناقضات وبقلة العقل ، والحمق والعمى والصم . ولكن الأمر على عكس ذلك عندما ننتقل من الآلهة أى من أداة التنفيذ فى أيدى القدر إلى القدر نفسه ؛ ففى هذه المسرحية ، يطالب جوبيتير صراحة بأن يقضى ليلته مع « الكمين » بعد الزيارة الأولى التى قام بها خلسة ، إنه يفرض إذن على امرأة وفية أن تخون زوجها الذى تحبه وأن تخالف قوانين البشر لتصبح خالدة . إنه يعمل مندوباً عن قوة أرفع وأسمى منه .

وفى سنة ١٩٣١ قدمت له « يوديت » ، وفى سنة ١٩٣٣ « انترمتزو » ، وفى سنة ١٩٣٤ « تسا » . وقد قدمت له فى سنة ١٩٣٥ مسرحية « لن تقوم حرب طروادة » . ويجدر بنا أن نقف قليلا عند هذه المسرحية لأنها من أهم مسرحيات جيرودو . وهى مشتقة من قصة من قصص الإلياذة تناولها جيرودو بالتحليل والتحوير والصقل ، فجعل هكتور يعود من حرب محلية استغرقت زمناً أرهق المحاربين ، ولذلك فإنه ينشد السلام ، ويريد الهدوء ، فقد خبر الحرب ، وعرف ما فيها من آلام وشقاء . ولكن تقف فى وجهه العواطف

المتناقضة فالإغريق يريدون الثأر ممن انتهك حرمتهم ، والطرواديون يريدون الاحتفاظ بهيلانه الجميلة ، وبين هؤلاء وأولئك هكتور ونساء المدينة اللواتى لا يردن تعريض أزواجهن وأولادهن للقتل . وفى وجه هذه الفئة المناهضة للحرب تقف جبهة مكونة من رجال بلغوا سن الشيخوخة يريدون أن يمتعوا أبصارهم بجمال هيلانه واثقين أن الحرب لا تصيبهم فى أنفسهم بأذى لأنهم لن يحملوا فيها سلاحاً ، ويمثل هؤلاء الشاعر السياسى « ديموكوس » . ونرى مما يعرضه جيرودو أن القائدين الكبيرين للشعب لا يريدان الحرب كذلك ، ولكن رغم كل هذا ولأسباب غير مفهومة تقوم الحرب . لقد كانت هيلانه مستعدة للرجوع إلى زوجها ، وكان قائد الطرواديين مستعداً للاعتذار والتعويض ، وهيلانه لا تحب باريس الذى اختطفها أكثر مما تحب زوجها « منيلاس » . ولكن رغم هذا كله قامت الحرب لأن « حتمية » تفرضها . وهكذا انتصر القدر الأعمى ، الأنانى ، الوحشى الذى يصير المرء فى يده ألعوبة سهلة طيعـــة ، وتعرضت الإرادة الشخصية والمحاولات البشرية والآمال الإنسانية للاستهزاء والتلاشى والعدم . وفى إمكاننا أن نقول إن الأمر ليس أمر الآلهة ولكن أمر القضاء والقدر الذى يعرفه جيرودو فى شىء من الغموض بقوله « إنه صورة سريعة للزمن » . ومما لا شك فيه أن جيرودو متأثر فى اتجاهه هذا بالتيار الذى كان محيطاً به إبان وضع مسرحيته ، فقد كانت كل من ألمانيا وفرنسا تتحفز ضد الأخرى وتستعد لها .

وفى سنة ١٩٣٧ ، قدمت له مسرحية « الكترا » التى تتكون من فصلين ، وهى فى درجة من متانة الأسلوب لم نعهدها منذ راسين . ونرى فيها أن جيرودو يحور مأساة سوفكليس القديمة لكى يثبت أن الحياة تكون خيراً لأهلها لو أنها خلت من الكراهية والحرص على الأخذ بالثأر . فانه يجعل الكترا تكره أمها دون أن تعلم حقيقة الجريمة التى ارتكبتها بالاشتراك مع عشيق لها يدعى « ايجستوس » . وكان عشيق أمها وقد أصبح ملكاً على المدينة يتصور أن الكترا تعلم الحقيقة ويحاول أن يردها عن نية الثأر ويسعى جاهداً أن يباعد بينها وبين الآلهة . إذن جيرودو يرسم لنا ايجستوس فى صورة من يريد أن يدفع المأساة عن البشرية رغم ما قد ارتكبه من قبل – أى أن عقله أخذ يتغلب على عاطفته . ولكن رغم كل هـــذه المحاولات تقع المأساة إذ أن أهل كورنثيوس أقبلوا لمهاجمة المدينة وايجستوس يريد أن يفرغ لهم ويدفع عدوانهم ، ويخشى العدو الداخلى الممثل فى الكترا . فهو يتوسل إليها أن تهدأ وأن تدع له فرصة رد العـــدو ويعدها نظير ذلك أن يعترف علانية بإثمه وجرمه ، ولكنها تأبى :

ايجستوس : لا تعاندى ! أنت رديعة يا الكترا ! فى أعماق نفسك وديعة ، فاستمعى إلى نفسك .
إن المدينة ستهلك .

الكترا : فلتهلك .

وهكذا يبدو جلياً أن الكترا هى سلاح القدر ، وما يشاء القدر لا بد من نفاذه ، فيقتل ايجستوس : وإذ هو يقضى نحبه تحت طعنات « أورستيس » شقيق الكترا ، أخذ يناجيها بنداء الحب القوى الطاهر ، رمزاً إلى أن الأمل الأخير فى إنقاذ العالم من المآسى هو الحب .

وفى سنة ١٩٣٧ قدمت له أيضاً « ارتجالية باريس » وهذه المسرحية تعيد إلى ذاكرتنا « ارتجالية فرساى » التى قدمها موليير سنة ١٦٦٣ . إن وحدة التفكير الفنى عند موليير وجيرودو قد قضت على الفاصل الزمنى بينهما ، وهو قرابة ثلاثة قرون : ففى نصوص سنة ١٦٦٣ لم يكن الأمر يتعلق بموليير أو بفرقته أو بآثاره أو بنقاده ، وإنما كان الأمر يتعلق بالمسرح ذاته : وهذا ما نجده بالذات فى ارتجالية جيرودو .

وفى سنة ١٩٣٨ ، قدمت له مسرحية « نشيد الأناشيد » . أما فى سنة ١٩٣٩ فقدمت له « أوندين » وهى مسرحية من ثلاثة فصول وبطلتها جنية أو حورية

البحر التى أحبت إنسيا هو الفارس المتجول « هانس » :
ويكرس جيرودو هذه الأسطورة على تحليل الحب الإنسانى فى أسلوب شعرى كأنه أغنية — وإن كشف عن المأساة الضخمة التى تتربص بهذا الحب باعتبار أن الرجل أصغر نفساً وأتفه شأناً من أن يتحمل مسئولية حب مثالى خارق كحب الحورية أوندين التى فنيت فى هذا الحب على نحو ما توضح هذه المسرحية الرائعة بروحها الشعرية وعمقها النفسى النافذ إلى الأغوار .

وتنتهى هذه المسرحية الحالمة فى جو شعرى رائع يبقى فيه الحب حياً إلى الأبد رغم موت الفارس وفقدان أوندين لذاكرتها . ولا تستمد هذه المسرحية قيمتها من أحداثها الأسطورية وما ترمز له من أفكار وأحاسيس بشرية فحسب بل يضفى عليها حوارها الشعرى المرهف ما يكاد يجعل منها أغنية حارة نافذة للحب المثالى العظيم .

يختلف جيرودو فى علاجه لهذه الأسطورة عن الكاتب الألمانى فردريك دى لاموت فوكيه (١٧٧٧ — ١٨٤٣) فى تلافيه للروح الرومانسية الخالصة التى عالج بها فوكيه هذه الأسطورة حتى اعتبرت قصته عنها أنموذجاً للأدب الرومانسى عندما يستمد موضوعاته من الأساطير ، وذلك بينما اتخذ جيرودو من الأسطورة وسيلة لتحليل عاطفة الحب وإبراز سحرها ومفاهيمها ، وان انتهت تلك العاطفة بمأساة .

وفى سنة ١٩٤٢ قدمت له مسرحية « أبللون المرساكى » وهى من فصل واحد . وفى سنة ١٩٤٣ قدمت له مسرحية « سدوم وعمورة » .

يأسف جيرودو لأن المؤلفين المسرحيين قد أساءوا إلى سمعة المسرح ، وجعلوا بعض الناس يعتبرون الإنتاج المسرحى من الأنواع الأدبية الثانوية . ويقول فى هذا الصدد : « إذا كان جمهور باريس قد أوشك أن يفقد مبدأ أهم الفنون بفقده مبدأ المسرح ، فمرجع ذلك إلى أن بعض رجال المسرح زعموا ألا ينشدوا إلا سهولته وتبعاً لذلك تفاهته ، رغبة فى الحصول على إعجاب المشاهدين بالوسائل المطروقة والدنيئة ، فينبغى إذن إعادة السمو والرفعة إلى المسرح » :

ولإنعاش المسرح ، يبتكر جيرودو نوعاً من المشاركة بين أبطاله والجمهور الذى يتخذه شاهداً ويدعوه إلى المشاركة فى المناقشة التى تستند موضوعاتها على عناصر ذات طابع عام مثل الأمانة والطهارة والتسامح وتحول الشخصية والسلم والحرب والحياة والموت ومصير الجنس البشرى . . . الخ .

ويحيا أبطال جيرودو فى جو برئ وعجيب ويتسمون بالخير والسمو وإن كنا نجد أحياناً بعض الشخصيات الهزيلة التى تمثل تفاهات الحياة . فإن سيجفريد وهكتور وأوليس وايزابيل كائنات سامية ؛ وأهم ما يدعونا إليه الأبطال هو مواجهة القوى التى تهدمنا ومقابلتها بابتسامة الرضا وبشعور عميق مقدر للأخوة البشرية .

أما عن أسلوب جيرودو ، فقد وصفه « البيريس » فى « ثورة كتاب اليوم » (١٩٤٩) بأنه يعبر عن الموهبة الشعرية .

ويغلب على مسرحيات جيرودو بساطة الأحداث، وبعدها عن الواقع وصدورها عن تفيقه خيالى ينقل به للمسرح احتقاره للواقع اليومى وحلمه بعالم مسحور ، وعدم انتمائه لأى مذهب أو اتجاه فكرى أو فنى من المذاهب والاتجاهات التى كانت تتصارع فى وطنه خلال حياته كلها . وقد أصبح مسرحه متعة للخاصة من المثقفين الذين يروعهم الخيال وتغذيهم الثقافة الواسعة التى تشع فى الحوار إشعاعاً يخطف العقول : ولقد أصاب « لنسون » إذ قال « إن الشعر والحدث والحديث تتعادل فى مسرحيات جيرودو » .

ظل جيرودو يكتب للمسرح حتى توفى فى ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ ، بل وترك بعد موته مسرحيتين أخريين وهما « مجنونة شايوه » وهى عبارة عن نقد موجه إلى رجال المال و « من أجل لوكريس » ، عرضت إحداهما بباريس سنة ١٩٤٥ والأخرى سنة ١٩٥٣ : وقد توالت عقب وفاته الكتابات التى تمجده :